سر من أسرار العربية

ورجوان نصل الى حقيقته في السليقة العربية

لمحمود محمد شاكر

هذا بابٌ من أصول اللغة لم يَتَرَجَّم إليه أوائلنا — رَضِيَ اللهُ عنهم — إلاَّ اشارة مبهمة وضعة خافية او بدءاً موضوماً ، فهم لم يجردوا لهُ انظارهم ، ولم يحتفلوا لتقصيه وتتبعه واستظهار طرائقه ، ومع حين اشاروا او ألمحوا او بدؤوا ، لم يلموا إلاَّ بأطرافه وحدوده ، فلم يغوصوا في قعره وسره ومعدنه ليستنبطوا منهُ اسراره المستكنة تحت ألفاظ العربية . ومعاني هذا الباب مما يقتضي القارىء فضل تدبر وصبر وتقليب وتثبت حتى ينفذ الى حقيقته ، ويستولي على ما يتعسر من أصوله ، فاذا فعل فقد أدرك منهُ طرفاً صالحاً يستعين به على التوسع في معرفة حده وغرضه ونتائجه ، وبيننا في تحقيق ما نرمي اليه من تفسير ألفاظ العربية بدلالة الحروف على معان أصلية ثابتة في طبيعة أصحاب السليقة العربية الاولى الذين تلقينا عنهم بيان هذا اللسان العربي المبين

وأنا أريد بقولي « معاني أصوات الحروف » : ما يستطيع ان يحتمله صوت الحرف — لا الحرف نفسهُ — من المعاني النفسية التي يمكن ان تنبعث بها موجة اندفاعه من مخرجه من الحلق أو اللهاة او الحنك او الشفتين او الخياشيم ، وما يتصل بكل هذه من مقومات تحت الحرف المنطوق . وليست المعاني النفسية — او العواطف او الاحساس — هي كل ما يستطيع ان يحتمله صوت الحرف ، بل هو يستطيع ان يحتمل ايضاً صوراً عقلية معبرة عن الطبيعة وما فيها من المادة ، وما يتصل بذلك من أحداثها أو حركاتها او اصواتها او اضوائها أو غير ذلك مما لا يمكن استقصاؤه الاَّ بعد طول الممارسة لوحي الطبيعة في فطرة الانسان ، وبعد مداومة اللغة ومفرداتها على أصل دقيق من هذا الباب ، والاحتفال في كل ذلك للتدبر والاستقصاء ومداورة اللسان على مخارج الحروف مع حسن التفطن للمعاني الاولية التي يمكن اعتمادها أصلاً لمعنى الصوت في حرف حرف من حروف اللسان العربي

وأنا لا أدعي لنفسي درك هذا الذي قدَّرت من «علم معاني أصوات الحروف»، ولا أني وصلت بالفكر فيه الى حيث أريد ، ولا أني قد حشدت لهُ جهدي كلهُ حتى اصل الى استقصاء

المعاني التي تقتضيها أصوات الحروف . كلا ! بل هذا جهد كنت بذلته قديماً والنفس ساكنة قارة مادئة ، إذ كانت تخيلة لطيف الظن وحسن الاصغاء لمواجيس العاطفة وألحان الطبيعة ، وقد حاولت ان اقيد كل خاطرة بقيد لا تفلت من جرامعه ، ولكن الايام انزعتني وزمت بي الى حومة تتسعر وتضطرب وتطفى بضجيجها على فترة النفس واجماعها على الهدأة والهوينا والسكون ، فكذلك ذهب أكثر ما تلقفته من المعاني نهباً ضائعاً بين النسيان والغفلة وقلة المبالاة وطول الاهمال . فلما رغب الى أخي الأستاذ « فؤاد صروف » أن أعود الى الذي تركت من ذلك ، أقبلت على فكر قديم لم تبق عندي غير أطلاله وظلاله ، فألممت منهُ ما نقص على قدر ما بقي بي الشوق الى انقاذ هذه الخواطر من الضياع والبوار . فأنا أكتب هذا الباب الآن ليكون قيداً لما فيه يحبسها حتى تبقى في مواطنها لا تضيع ولا تشرد ، ورجاء أن يقع عليه من يحسن أن يتصرف فيه بقوة ونشاط وتجويد ، أو من هو أمثل مني بممارسة اللغة والوقوف على أسرارها ، والتهدي الى مسالكها وغوامضها ، والاستنباط لينوع هذا العلم بالنصيرة النافذة التي لا تخطىء مظنة الفائدة ، ولا تضل عن جوهر المعاني المطوية في ظواهر الحروف

وينبغي لنا أن نقدم بين يدي الكلام فصولاً من القول تكون بها الفائدة ، وتسهل معها تقريب هذا الباب الى من يحتمله ، ونحن نقصد فيه الى السهولة والوضوح ، فان من يقرؤه ، ويرجى لهُ أن يصل الى حقائقه ، من لا يستطيع أن يقف على الاصول التي يرتد اليها نسب هذا الكلام . من كتب القراءات وكتب اللغة ، وأصول كتب النحو والبلاغة وغيرها مما ينصل بسبب الى أصل المرية والكشف عن مدارجها

فينبغي اذن ان نفرق اولاً بين الصوت والحرف . فالصوت نَفَسٌ مقذوفٌ من الجوف الى الحلق الى الفم يخرج ممدوداً مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في طريق استطالته وامتداده ما يثنيه او يقفه أو يردده أو يكسه ، وإنما يعرضُ له ذلك في الحلق أو الفم أو الشفتين أو الثنايا والأضراس مع اللسان ، أو في الخيشوم أو في أعلى الحنك ، على اختلاف في موانع النفس من كلّ هذه الاعضاء . فحيث يعرضُ للنَفَس المقذوف من الجوف ما يقفهُ أو يقطعهُ عن الامتداد والاستطالة والاندفاع ، فيسمّى هذا المكان « مقطعاً » وإذن فلكل مقطع يقطع النَفَس عن استطالته جَرْسٌ يتميز من جرْس اختلاف نوع الصوت حيث يقطع . فانثناء النَفَس على المقطع أو وقوفه أو تردُّدهُ أو ارتداده أو انكاسه يحدث من الجرس ما نسميه « الحرف »

ولسنا نستطيع أن نعرف مقاطع الحروف وما تحمله من الجرس على براءته الا أن نأتي بالحرف ساكناً لا متحركاً وذلك لان الحركة فيها حرف من الحروف ، فان الفتحة « أ »

مختلسة، والضمة «واو» مختلسة والكسرة «ياء» مختلسة[1]، وكأنها حرف ساكن بعد حرفاً متحركاً ولا يبرأ مقطع الصوت « أي الحرف » من شائبة الاختلاط بمقطع صوت غيره الا حين يكون ساكناً لا تحفزه الحركة عن مستقر انقطاعه، ولا تميل به الى الحرف الذي هي بعضه وجزء منه مع اختلاس الصوت وسرعته وكبحه عن الوصول الى مستقر انقطاعه هو ايضاً

فاذا عرفت ذلك، وعرفت ان الحرف الساكن لا يوصل الى النطق به مفرداً مجرداً من حركة تلحقه او حركة تحفزه، لم تجد بداً من ان تستبدل الحركة التي تعين على النطق بوسيلة اخرى تؤدي الى تمكينك من قطع الصوت حيث لا يختلط بمقطع حرف غيره من الحركات الثلاث. وليس يوصل الى تحقيق ذلك الصدى الصوتي للحرف مع تجريده الا ان تدخل على تأهبك لدفع الصوت همزة مكسورة قبله، فتقول مثلاً في الشين والقاف والجيم والفاء والزاي، «إشْ»، «إقْ» «إجْ» «إفْ» «إزْ» الى آخر الحروف. وإدخال الهمزة هو التحقيق والصواب وذلك لان صوتها يبدأ من الجوف ثم يعتمد على أسفل الحلق وأقصاه ثم يحفزها بشاء بعد ذلك من الاصوات، وكذلك لايختلط باي الاصوات التي تريدها وتحتال فيها لانها أول اصوات الحروف. ثم الهمزة المكسورة أحق بالاثبات هنا من المفتوحة والمضمومة. والعلة في ذلك أن « الفتحة » إن هي الا الف مختلسة تجد عندها الصوت بريئاً من الضغط والحصر لانفتاح الفم والحلق، « والضمة » واو مختلسة يضم معها معظم الشفتين على شدة الضغط والحصر، وكلا هذين إذا مارسته ودارسته — وجدته يدخل المؤونة عليك في اعتبار صدى الحروف عند منقطع الصوت. أما « الكسرة » وهي الياء المختلسة المسروقة من أصلها فانها يقع ما فيها من الضغط والحصر على مجرى الاصوات كلها، وذلك انك ترى الاضراس تكاد تنطبق على جنبتي اللسان فتحصره بينها ويجري الصوت معها ممتداً مستطيلاً في الفم كله على يسر، وكذلك يسهل ان ترجع بها اول الحرف لتحفزه الى اي مقاطع الصوت شئت، فهي اذن لذلك أولى ان تكون حافزة النفس لاحداث الصدى الذي يتميز به كل حرف من حروف النطق

فاذا عرفت ذلك، وعرفت ان مقاطع الصوت متنازعة بين الحلق الى الشفتين والخيشوم على تدرج واطراد في منقطع الصوت ومكان استدامه أو انقلاله أو تقشيه، رأيت أن ثمة ترتيباً لا بد منه للاصوات على مقتضى تدرج انقطاعها في أي مكان من آلة النطق التي هي الانسان وما يحيط به. ونحن نجتهد أن نأخذ ذلك عن التجربة التي نحدثها بأنفسنا، وما وصل الينا من تحرير

(١) كان المتقدمون من أصحاب النحو قبل ان تقرر مصطلحاته، يسمون الفتحة « الالف الصغيرة » والكسرة « الياء الصغيرة »، والضمة « الواو الصغيرة »، وذلك لانك اذا أشبعت الفتحة في قولك مثلاً « سعد » وكسرت العين لاجتلاب الساكنين صارت « ساعد »، وكذلك بقي اخواتها. فهذا أسلوب جيد من النظر في حقيقة الحركات

المتقدمين من أصحاب العربية لبيان مقاطع الحروف وصور منطقها

فالحروف او الاصوات حيث تقطع تتبين على هذا الترتيب في اطرادها :

الهمزة(١) ، الألف (٢) ، الهاء (٣) ، العين(٤) ، الحاء (٥) ، الغين(٦) ، الخاء (٧) ، القاف(٨) ، الكاف (٩) ، الجيم (١٠) ، الشين(١١) ، الياء(١٢) الضاد(١٣) ، اللام (١٤) ، النون(١٥) ، الراء (١٦) ، الطاء (١٧) ، الدال (١٨) ، التاء (١٩) ، الصاد(٢٠) ، السين(٢١) ، الزاي (٢٢) ، الظاء (٢٣) ، الذال (٢٤) ، الثاء(٢٥) ، الفاء(٢٦) ، الباء(٢٧) ، الميم(٢٨) ، الواو (٢٩)

فهذه هي حروف العربية التسعة والعشرون على التصاعد من الحلق الى منقطع الشفتين غير ناظرين الى ما يدخل بعضها من المد والاخفاء والتفخيم والامالة وغير ذلك من الاعراض التي تلحق الصوت من قبل انقطاعه واصطدامه . واعلم انك اذا اردت ان تسير في ذلك على طريقة مستقيمة فلا بدّ لك من ان تأتي بهذه الحروف ساكنة قبلها همزةٌ مكسورةٌ للعلة التي ذكرناها آنفاً ، ثم كرّرْ ذلك ، و تصور صوت الحرف وردده وتمثل قوته أو ضعفه أو لينه او استرخاءه او تفشيه او انحرافه أو استطالته ، حتى يتأنّى لك ان تعرف بالمدارسة موقع انقطاع صوته الذي يحدث عنهُ الصدى المتردد الذي يتميز به الحرف مما يلابسهُ أو يدانيه او يقع على بعض موقعه

وقد تقصّى شيوخنا من أئمة اللغة مخارج الحروف ، ولا بدّ لنا هنا من ذكر هذه المخارج لحاجتنا اليها فيما نستقبل من كلامنا عن معاني اصوات هذه الحروف ، وسنتبعها على الترتيب الذي رأيت قبل للحروف العربية نفسها

« المخرج الاول » من أسفل الحلق وأقصاه مع اطلاق الهواء، وفيه: الهمزة (١)، والالف (٢)، والهاء (٣)

« المخرج الثاني » من وسط الحلق مع اطلاق الهواء وفيه : العين (٤) ، والحاء (٥)

« المخرج الثالث » من أدنى الحلق الى ان يرتطم الهواء المقنوف بأول الحنك الاعلى وفيه : الغين (٦) ، والخاء (٧)

« المخرج الرابع » من طرف اللهاة وأقصى اللسان مما يلي الحلق مرتطماً بالحنك الاعلى بعد ذلك وفيه : القاف (٨)

« المخرج الخامس » من طرف اللهاة وأقصى اللسان مرتطماً بمتقدم الفم من الحنك الاعلى وفيه: الكاف (٩)

« المخرج السادس » من وسط اللسان مع تفشي الهواء وصعده الى وسط الحنك الاعلى وفيه: الجيم (١٠) والشين (١١) ، والياء (١٢)

« المخرج السابع » من أول حافة اللسان من الجانب الايسر ومصر الهواء الى الاضراس التي في هذا الجانب وفيه : الضاد (١٣)

« المخرج الثامن » من أدنى حافة اللسان الى منتهى طرفه ودفع الهواء عن جانبيه محصوراً في الحنك الاعلى مما فوق الضاحك والناب والرباعية والثنية وفيه : اللام (١٤)

« المخرج التاسع » من طرف اللسان بينه وبين فويق الثنايا العليا وانبثاث الهواء الى الخياشيم وفيه : النون (١٥)

« المخرج العاشر » من طرف اللسان بينه وبين فويق الثنايا العليا مع تحرف اللسان واطلاق الهواء وحصره وترديده في تجويف اللسان وفيه : الراء (١٦)

« المخرج الحادي عشر » من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مع ارتطام الهواء بقدر الاعتماد من الحنك مصحوباً مع الانفاذ وفيه : الطاء (١٧) ، والدال (١٨) ، والتاء (١٩)

« المخرج الثاني عشر » من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مع تعريد اللسان وانطباقه بحصره وترديده والتصفير به في تحويف اللسان الى الثنايا السفلى وفيه: الصاد (٢٠) ، والسين (٢١) ، والزاي (٢٢)

« المخرج الثالث عشر » من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا مع انطباق الهواء في فروج الاسنان الى اللثة وبعد أسلة اللسان الى خارج الثنايا وفيه : الظاء (٢٣) ، والذال (٢٤) ، والثاء (٢٥)

« المخرج الرابع عشر » من باطن الشفة السفلى مع قذف الهواء الى الشفة العليا من بين الثنايا وفيه: الفاء (٢٦)

« المخرج الخامس عشر » من انضمام الشفتين بعد قذف الهواء من الحلق وانطباق الشفتين عليه قبل تدوره وخروجه ، أو خروجه مع استدارة الشفتين وانطباق أكثرها وفيه : الباء (٢٧) ، والميم (٢٨) ، والواو (٢٩)

فهذه خمسة عشر مخرجاً لحروف العربية على الترتيب والتوالي والاطراد قد رصفناها ، ولم نهتم بكل الفروق بين الاحرف المشتركة المخارج ، وهناك مخرجان آخران لا بأس من ذكرهما هنا ، وان كان الرأي عندنا فيهما غيرما ذهب اليه كثير من أئمة العربية ، وبهما تتم المخارج سبعة عشر مخرجاً

« المخرج السادس عشر » وهو منحط بالمخرج الاول والمخرج السادس والمخرج الخامس عشر ، هو من الحلق الى أقصى الحلق حيث ينقطع المخرج حتى يتصل بالهواء خارج الفم وفيه : الالف ، والواو الساكنة المضموم ما قبلها ، والياء الساكنة المكسور ما قبلها ، وأنا لا أجعله مخرجاً لطول تتبعه ليس هذا مكان بيانها

« المخرج السابع عشر » وهو ملحق بالمخرج التاسع والخامس عشر حيث يمتد الهواء المبعث في الخياشيم يتردد في دورته فيها وفيه : النون والميم الحقيقيتين الساكنتين في الاخفاء والادغام بالغنة

فهذان المخرجان ، كما ترى ، هما أعراض قد لحقت أصوات الحروف ، ولم تنشأ منهما حروف منصوبة على اللسان كسائر حروف المعجم التي اعتمدناها في لساننا العربي . ولو أننا نسبنا المخارج على الأعراض التي تلحق أصوات الحروف لكثر عندنا ما يمكن ان يعد من المخارج . ألا ترى أن الحروف التي زعمناها من مخرج واحد إنما كانت كذلك لتقاربها مع تمام اختلافها ، والا لما جاز في العقل أن يشترك في المخرج الواحد أكثر من حرف واحد البتة . وسيكون لهذه الأعراض التي تلحق أصوات الحروف بيان تقتضيه فيما يأتي بعد من كلامنا

ولا بد هنا أيضاً من حصر هذا التقسيم الذي مضى في دائرة أضيق من هذه ، فهم يسمون حروف المخارج الثلاثة الاولى «الحروف[1] الحلقية» وهي سبعة أحرف

والرابع والخامس «الحروف[2] اللهوية» نسبة الى اللهاة ، وهي اللحاة المعلقة بين الحلق والفم ، وهما حرفان

والسادس «الحروف[3] الشجرية» نسبة الى الشجر وهو مفرج الفم لانتاحه ، وهي ثلاثة أحرف

والسابع وهو مخرج[4] الضاد لم يسم لنا ، وبعضهم يعدها من الحروف الشجرية وهو ليس بشيء

والثامن والتاسع والعاشر «الحروف[5] الذلقية» نسبة الى الذلق وهو طرف اللسان وطيه اعتمادها ، وهي ثلاثة أحرف

والحادي عشر «الحروف[6] النطعية» نسبة الى نطع الغار الاعلى وهو سقف الحنك ، وهي ثلاثة أحرف

الثاني عشر «للحروف (٧) الأسلية» نسبة الى أسلة اللسان وهي مستدقه حيث تصفر عليه الحروف ، وتسمى ايضاً حروف الصفير ، وذلك ، وهي ثلاثة احرف

والثالث عشر «للحروف (٨) اللثوية» نسبة الى اللثة حيث يكون نصع الحرف في احد حرف

والرابع عشر والخامس عشر « للحروف (٩) الشفوية » لانها تخرج من بعض وهناك يكون مقطع الصوت ، وهي أربعة احرف

وتقسم هذه الحروف بالنظر الى مقطع الصوت والنفس الى أقسام كثيرة : فمن ذلك قسمتها الى « مجهورة » « ومهموسة » ، فالمجهورة هي التي أشبعت الاعتماد في موضعها ، ومنع النفس أن يجري حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ، والمهموسة ما ضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس ، وهي عشرة أحرف : الهاء (١) والحاء (٢) والخاء (٣) والكاف (٤) والسين (٥) والصاد (٦) والتاء (٧) والشين (٨) ، والثاء (٩) ، والفاء (١٠) . وسائر حروف المعجم بعد ذلك مجهورة كما ذكرنا وصفناها

وقسمة أخرى الى الشدة والرخاوة وما بينهما ، فالشدة ان يمنع الحرف الصوت ان يجري فيه فلا تستطيع ان تمده معه ، والحروف الشديدة ثمانية وهي : « الهمزة (١) ، والقاف (٢) ، والكاف (٣) ، والجيم (٤) ، والطاء (٥) ، والدال (٦) ، والتاء (٧) ، والباء (٨) . فاذا اردت ان تمد صوتك مع القاف من قولك « الحق » لم تستطع ذلك . والرخاوة أن يجري الصوت في الحرف كما ترى في قولك « القس » فانت تجري مع السين كما شاء ، وبين هذين [بين الرخوة والشديدة] حروف ثمانية وهي : الألف ، والعين ، والياء ، واللام ، والنون ، والراء ، والميم ، والواو . فهذه يجري الصوت معها على نصف ان مساحة قليلة ، وسائر حروف العربية — بعد ما سميناه من الحروف — هو رخو

وقسمة أخرى الى الاطباق والانفتاح ، فالحروف المطبقة هي التي تضع لسانك فيها طبق الى غار الحنك الأعلى مطبقاً به على الهواء ، وهي أربعة أحرف ، الضاد ، والطاء ، والصاد ، والظاء ، وسائر الحروف منفتح ولولا هذا الاطباق لخرجت الضاد من العربية ، ولانقلبت الطاء دالاً ، والصاد سيناً ، والظاء ذالاً

وقسمة الى الاستعلاء والانخفاض . والاستعلاء أن يتصعد الصوت في نصف الحنك الأعلى ، فالحروف المستعلية سبعة : الخاء ، والغين ، والقاف ، والضاد ، والصاد ، والطاء والظاء وسائر الحروف منخفضة : وأنت ترى أن مع الاستعلاء الحروف الأربعة المطبقة التي عددناها قبل

وأما القسمة الأخيرة للحروف فهي استنفاد الصاد والسين والزاي ، جعلها حروفاً للصفير كما ذكرنا ذلك قبلاً ، وباقي الحروف العربية لا تصفير

فهذا نهاية ما يجب ان نقدمه بين يدي الكلام عن « معاني أصوات الحروف » ، ونحن نرجو أن نكون قد بلغنا بعض الغاية في تقريب صوت الحروف لمن يريد أن يحفز همته حين يشرع في الكلمة الآتية في دراسة معاني الأصوات المقترنة بالحروف أو التي يجري معها في الشعر والمقاطع